تداولية المكون الخطابي في السرد الأدبي

أ. كاهنة دحمون
جامعة البويرة

إذا اعتبرنا أنّ النصوص حصيلة تركيب تؤسسه قواعد وعلاقات، فإنّه يتعين التعرف على الوحدات القادرة على تكوين هده المنظومة من العلاقات، وعليه فإنّ التحليل يكون اعتمادا على مستويين ينظمان عناصر الخطاب السردي. الأول في المستوى السردي الذي ينظم تعاقب وتسلسل الحالات والتحولات. والثاني في المستوى الخطابي الذي ينظم داخل النص في تسلسل وجوه وأفعال المعنى. لهذا يبدو ضروريا تمييز مستويات الوصف، التي انطلاقا منها تكون العناصر وقواعد اندماجها معروفة بشكل ملائم.

وتنظر نظرية النّص إلى النّصوص بوصفها وحدة كلامية تامة، يحققها المتكلم بهدف معين وفي إطار ظروف مكانية وزمنية محددة[1]. لتختلف النصوص عن متوالية الجمل من خلال ظاهرة التماسك الدلالي، فهو تتابع متماسك من الجمل. ليفهم تتابع الجمل على أنّه نص مترابط من خلال تسلسل ضميري متصل لوحدات لغوية، قائم على مبدأ إعادة الصياغة أو الإبدال والرّبط الذي يحقق التناسق في بنيته العميقة، والتي تدعم الجوانب التالية:

1- التماسك الدلالي للنصوص: الذي يعد ظاهرة تركيبية عميقة.

2- إمكانية تذكر «مضمون» نص وربطه بنص آخر.

3-إمكانية الانتقال من موضوع إلى موضوع، مع ضمان التناسق في الخطاب السردي.

4-إمكانية اختصار نص في ملخص أو فقرة أو في حكاية مضمنة.

وفي وصف الإحالة والمرجعية، لمنحها للنص، سوف نجد أنفسنا أمام ظواهر وإجراءات نصية من قبيل: الإحالة والضمائر والظروف، اهتم بها كل من هاليداي ورقية حسن –Halliday et R.Hassan-باعتبارها المقوم الأساسي للترابط، ولا يمكن التحليل دونها، فهي التي تحقق الاتساق Cohésion والانسجام Cohérence، في البنية التشكيلية والدلالية. لأنّها مجموع القواعد التي تربط بين العناصر، لتستمر في خط واتجاه واحد تصاعدي، وهي التي تضمن استمراريتها وتداولها الخطّي والدلالي في

مجموعة من القواعد الموضعية، تحكمها معايير لغوية اقتضاها مقام ومحيط خارجي. والتي تقرر ما إذا كانت الوحدة التخاطبية، تدخل في دراستها ما يسمى «مفهوم التخابر وموضع التحاور»[2] الذي يأخذ معيارا تداوليا لأنّه مرتبط بالمقام وبالوضع التخابري بين المتكلم والمخاطَب. وسنرى بأنّ لها دورا يقترن بتحديد المرجع والتعبير عن الذاتية وتوزيع المعلومات الدلالية ونوعها، وفق مبادئ تحددها وتقدمها داخل الجملة في ترتيبها وطريقة تلفظها، فالمتكلم يعبر عن أغراضه في جمل مترابطة الأجزاء، يعبر عن هذا الترابط بواسطة إجراءات تحدث تماسكا وربطا معنويا ولفظيا بين العناصر يحقق ما يسمى بوحدة المحور والموضوع المحدث عنه، الذي نجده متعددا صوفيا في الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي، وموضوعا تخييليا خرافيا يتسم بالوحدة في مرايا متشظية لعبد الملك مرتاض.

1- الضمائر والشخوص:

يعرف الاسم في اللّغة العربية على أنّه «الكلمة الدالة على معنى في نفسها غير مقترنة... وإن لم تدل على معنى في نفسها بل في غيرها فهي حرف»[3] لذا نجد نوعين أو صنفين من الأسماء: منها ما هو صريح، يقوم بنفسه دون إحالة أو إنابة. ومنها ما هو غير صريح كالضمائر وأسماء الإشارة، فهي لا تشير إلى ما تدل عليه إلاّ بالإحالة، كما لا تدل على مسمى. وإذا أريد لها أن تدل عليه «فتنقلب دلالتها من وظيفية إلى معجمية، كان ذلك بواسطة المرجع، فدلالتها على مسمى لا تأتي إلاّ بمعونة الاسم»[4]، لتؤدي دورا في علاقة الربط، ضميرا كان أو إشارة، بعودة إلى مرجع لتغني عن تكرار لفظ ما رجعت إليه، مما يؤدي إلى تماسك أطراف القول، ليجعله واضح الوظيفة غير معرض للبس والإبهام.

وقد يدل الضمير على شخص يتحدث عن نفسه ويعبر عن ذاته، ليكون بهذا موضوع التلفظ، كما قد يدل على شخص يتحدث مع غيره أثناء الحديث. ليتحقق بذلك وجود ثنائية التواصل من باث ومتلق أو من مرسل ومرسل إليه، الذي يتشكل الحديث بهما ويكون تبادل الخطاب، إذ بمجرد أن يكون هناك الضمير (أنا) حيث يعلن **المتكلم** عن موقعه، فإنّه سيوضع في المقابل الضمير «أنت» ليدل على الآخر، أي المتكلم في مقابل المتلقي أو المستمع (مفردا أو جمعا). فبين أنا وأنت يكون الخطاب. واستعمال الضمائر يعني «تحويل اللّغة إلى الخطاب»[5]، بحيث تصبح من ضمن إمكانات وقدرات المتكلم ليوجهها إلى

شخص يقابله، لذا سميت بضمائر الخطاب، لها دور في اختصار« مرحلة من مراحل العلاقة بين الدال والمدلول »[6] لأنّها تحيل إلى الذات العاقلة مباشرة دون إحالة إلى لفظ معين. ليتحقق التواصل الذي هو أساس كلّ خطاب بحيث يكون لكل عنصر وظيفة، تسمح له بالدخول في علاقة تفاعل باستخدامها، فهناك دائما:

مرسل(1)..... سياق أو مرجع(3)..... مرسل إليه(2)

والأول وظيفته تعبيرية، متعلقة بالمتكلم وقد تسمى انفعالية. والثاني وظيفته ندائية يتعلق بما يتلقاه الشخص الذي يوجّه إليه الخطاب قصدا أو عن غير قصد. والثالث يمتلك الوظيفة المرجعية أو الإخبارية. وتعتبر هذه الوظائف الثلاث من أبرز ما يعتمد عليه في إدراك لعبة الضمائر والتعامل مع حوارات الشخوص[7]:

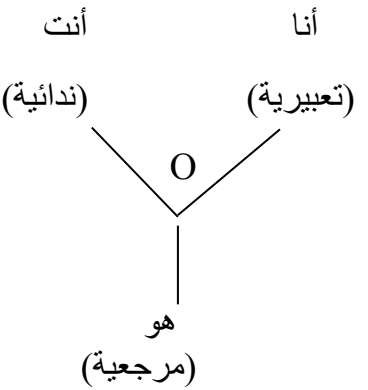

إذن، فأنا وأنت ضمائر تدل على ذات دون إحالة، فهما «لا يضمران مفهوما ولا شخصا ولكنهما يسمحان للمتكلم من احتلال منزلة الفاعل في الخطاب، مع علاقة تتوفر بينه وبين المرسل إليه.»[8] فهما يعبران عن القدرة الذاتية للمتكلم في فرض نفسه كفاعل. أمّا الضمير "هو"، فإنه يحيل إلى شخص آخر غائب، لكنّه معين في الخطاب (أو الملفوظ). لذا فضل سمير شريف أستيتيه تسميته بضمير الالتفات «فإنّ ما سموه ضمير غيبة، هو في حقيقته عدول أو التفات عن الخطاب بقسميه المتكلم والمخاطب. ويؤيد هذا الفهم أنّك تستعمل الضمائر (هو، هي، هما، هم، هن) في سياق الحديث عمن كان حاضرا من غير أن يكون خطابك موجّها إليه.»[9] فهي إذن تقوم بوظيفة الإنابة أي أنّها تنوب مناب الموضوع المحدث عنه، ولا تأخذ وظيفة الرابطة. وهذا ما يدعم

قول أركيوني «إنّ التصريح القائل أنّ الضمير (هو) تكمن وظيفته في التعبير عن اللاّشخص غير صحيح، إنّما يكون ذلك في بعض الأساليب التي يرغب المتكلم تحديد طبيعتها.»[10] بحيث لا يظهر إلاّ إذا أراد المتكلم. كما أنّ المتكلم ليس حاضراً دائما بالضّرورة، إذ يمكن أن يكون مفترضا خاصة في الخطاب الشفوي الذي يكون بالنيابة المتواترة أو المسلسلة، كما في قول الرسول (ص): «فليبلغ الشاهد الغائب» فكل مرسل إليه من الغائبين اللاحقين، يعتبر اليوم حاضرا في حجة الوداع[11].

واستخدام الضمائر مفردة يجعلها تفتقر إلى المرجع والحضور والوصل، فهي لا تتخذ معنى إلاّ في حال الحديث، لذا صنفت من المبهمات Déictique، فهي أشكال فارغة من النّاحية المرجعية، ولكن ليس من النّاحية الدلالية «إذ يمكن للضمير أن لا يكون له موضوع، ولكنّه من غير الممكن ألاّ يكون يكون له مفهوم.»[12]. ولتحديد دلالتها في الخطاب وجب تحديد المرجعية التي تحققها، لأنّها لا تحيل إلى شيء ثابت في العالم. وتتوافر الضمائر في جميع اللّغات كخاصية في التلفظ، كونها تحيل إلى علاقة بين ما نتلفظ به وما تشير إليه أي المرجع، لهذا جعلها بنفنيست E.Benveniste من مشكلة اللّغة[13]. ولكي تحيل على معين فوجود قرينتي index الحضور والمرجع أمر ضروري «فضمائر المتكلم والمخاطَب والإشارة قرينتها الحضور. وأمّا ضمير الغائب فقرينته المرجع المتقدم، إمّا لفظا أو رتبة، أو هما معا.» [14]. ليكون المرجع في هذه الحالة، هو القرينة التي تدل على المقصود بضمير الغائب، فيدل بذلك على الدلالة دلالة الضمير على معين بتقدمه لفظًا أو رتبة.

ولا يمكن معرفة مرجع الضمير قبل استعماله، كما أنّه يختلف باختلاف شروط الحديث التي يخضع لها المتكلم في نشاطه، سواء كان شفاهة أو كتابة. وبما أنّ الضمائر نوع من الكلم، فإنّها أيضا تتغير بتغير المقام في زمان ومكان ما بين المتخاطبين، أي أنّها خاضعة لعوامل تداولية، مرتبطة بالاستعمال أثناء الأداء الفعلي في مقام معين، له من العلاقات ما يجعلها معينة ولها دلالة، سواء داخل الخطاب أو خارجه.

فنجد مثلاً في الإشارات الإلهية للتوحيدي الضمير الدال على الكاتب، أي المتكلم، في قول التوحيدي «... لأنّك مع الجهد المبذول ترجع إلى حد مرذول ... وهكذا عليك عنه لأن الآثار فيها بيّنة والأخبار عنك متظاهرة – **أعني بالآثار ما أنت به خالق، وأعني بالأخبار ما أنت به رب** -فألْحظ الآن هذه الأسرار بعين لم

تخلق من لحم...»[15]، ولقد سمي ضمير المتكلم ضمير حضور، لأنّه صاحبه، فلا بد أن يكون حاضرا وقت النطق به [16].

وهناك تفاد لاستخدام ضمير المتكلم في جمل منها: «ونسألك – **إلهنا** - أن تجعلنا في كنف من ضمانك» [17] وفي «لكنك -**يا ربنا**-طويت عنّا إرادتك بنا» « لكنّا-**يا ربنا**-لا نستطيع أن نحفظ أنفسنا على طرائق أمرك ونهيك إلاّ ببوادي صنعك ولطفك»، وهذا لما في استعمال (الأنا) من إيحاء بالفردية في مقام تنبغي فيه المشاركة، ولما في (نحن) من تعظيم «لذا يفضل أن يعدل عن استخدام ضمير المخاطبين إلى ضمير المتكلمين.» [18] لما فيها من مواجهة ولما يقوم به المتخاطبون من أدوار لغايات محددة. ويمكن أن تعد الجمل التي تحوي على المخاطب والمرسل ذاته أي من: أنا + أنت أو نحن: «مخاطبة ضمنية» [19]، فبها يتم استحضار الطرف الآخر، حتى لو كان غائبا عن العين.

ونجد،(في الإشارات)، استخداما لـ"الأنت"، وهذا للانتقال إلى محدث عنه آخر في الخطاب أو بما سمي بالمحور، الذي ارتبط كثيرا كما رأينا بالمخاطَب، الذي يحيل إلى خارج النّص، أو ما يسمى بـ"الإحالة السياقية"، والذي اتسم التواصل معه في مقامات الدعاء والمناجاة، التي جاءت بمسار خطي واحد، سواء من:

أنا ← أنت (الله)

«اللّهم: إنّا نفتتح كلامنا بذكرك ودعائك استعطافا لك، ليكون نصيبنا منك بحسب تفضلك لا بحسب استحقاقنا؛ ونختم أيضا كلامنا بما بدأنا به رغبةً في رحمتك لنا وتجاوزك عنا ورفقك بنا وإهدائك ما لا ندريه ولا نتمناه إلينا. ونسألك – **إلهنا** -أن تجعلنا في كَنَف من ضمانك...» [20]، « اللّهم: إنّا نذلُّ لك بنا، ونعزّ ُمعك بك، وندعوك لنا، ونسلِّمُ إليك منك، لأنَّا إذا أحسَسْنا نِسْبَتنا من عبوديتنا لك، بدتْ علينا علامة الخشوع والخضوع... فرَقّنا – **اللّهم** -من مقامات نقصنا بك، إلى درجات كمالنا بك...» [21] « اللّهم: لولا إغضاؤك عنّا في وصفك، ولولا سترك علينا في ذكرك، ولولا رفقك بنا في الدّعاء لك، لكنا هالكين... فنسألك – **بفضلك ورحمتك** -أن تسمح لنا وتسامحنا حتّى ننتهي على رضوانك وإلى غفرانك...» [22].

أو من: أنا ← الله ← أنت

« أما بعد – **أطال الله بقاءك مُحَسَّداً، وأدام عزَّك حميداً مؤيّداً، وأنعمَ عليك مرفّهاً مُسدداً**ً -فقد علمتَ بصادق تجربتك وثاقب فطنتك، وبممرِّ

الأحداثِ بك... أن الجهدَ فَضْلٌ محروم والفاضل حرٌّ مظلوم...»[23]، « فما تقول – **أبقاك الله** -فيمن يُقْنِعه منك اعتراف بتقصير إن كان، أو إحسان بيسير إن وجدت إليه الإمكان؟...»[24].

كما يشير في بعض المواقع إلى أنّه هو المخاطَب، ليكون الخطاب ذاتيا بعد أن كان غيريا، والذي جاء في مقام السؤال، في الرسالة الثالثة[25]، التي جاءت في وصف حاله، وهذا في قوله: « وصل كتابك -**وصلك الله بالخير وجعلك من أهله** – تسألني فيه عن حالي، وتستنطقني به عن ظاهري وباطني... وفي الجملة عن جميع أموري وأسبابي... فاستمع الآن -**يرحمك الله** -...فأمّا حالي فسيئة كيفما قلبتها، لأنّ الدنيا لم تؤاتني لأكون من الخائضين فيها، والآخرة لم تغلب عليَّ فأكون من العاملين لها...» [26] ويقول في ذيل الكلام (شعرا) عن نفسه ووصف معاناته في القسم الثاني من الكتاب، في "الكأس الدهاق من الإشارات الإلهية": « أتدري لم هذا كلّه؟ أقول لك، وإن كان قولي عليّ، ووصفي فاضحي: هذا لأني أركب الخلاف مجاهراً، ثم أطلب الإستعطاف مساتراً... وأظنُّ أنِّي قد ملكت القُرْب، وأنا في غاية البعد... وأُعجبُ باسمي وكنيتي وأصول بإنِّيتي وأُبوّتي وأبيِّضُ وجهي بما يسودّ به غدا وجهي... فكيف الحيلة فيّ؟ وبأيّ دواءٍ أداوي ما بي؟ وما أخوفني أنّي كما قال الله سبحانه: (ومن لم يجعلِ الله له نوراً فما له من نور) (النور:4).

إذا كنتُ أشكو فلا يُسْمَعُ وإنّي لما بي فلا يَنْفَعُ
أطلُب صبْراً، ولا صبر لي فكيفَ احتيالي وما أصنعُ »[27]

وهذا للتعبير عن حاجته إلى "الله"، ليكون المتكلم هو المخاطَب نفسه، مما أكسب النّص إخبارا وتأثيرا، لما وصل إليه من درجة في التفاعل والاندماج معه أثناء الاتصال، والمرتبط أساسا بتجربته الصوفية والمعلومات التي يقدمها في الإخبار؛ كما أنَّ المتصوف يكتب ليقول ذاته.

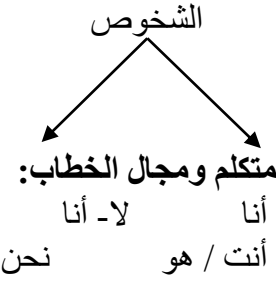

ومن الجانب تداولي، وفي تحديد مجال الخطاب، هناك ضميراً يعود على المبتدأ[28] (فحينما ينقل من موقع داخلي إلى موقع خارجي، يترك مكانه أثراً ضميرياً)، ليدل عليه وليفتح مجالا للتوسع والانفتاح لتوليد ملفوظات أخرى، لها علاقة به. وهذا ما نجده عند التوحيدي في «ومع ضرب الأمثال وتصريف وتصريف المقال، بيني وبينك أحوال -اللسان لا يصنفها والعبارة لا تصرفها، والوصف لا يأتي عليها والإشارة لا تصل إليها، كل ذلك للطافة ورقة ونحافة ودقة-من فضلك الذي أظلتني غمامته، ومطرت علي سحابته...» [(29)] فـ(الهاء) التي هي ضمير متصل تدل على غائب، قد أنابت عن موضوع محدث عنه وبلغتنا إياه وكأنّها شاهدة عليه. وهذا الموضوع هو المحور في الخطاب، لتبين أكثر وتشرح وتلفت إلى موضوع لم يذكر في الجملة الاعتراضية، الموجّهة أساسا إلى المخاطَب. ليكون بذلك، هذا الموضوع حاضرا في الخطاب وغائبا في الجملة، وهو موضوع "الأحوال" الموجودة بين المتكلم والمخاطَب. ففي لحظة المواجهة، وفي لحظة الخطاب، لم يعد ذكر لكلمة "الأحوال" بل أشير إليها واستحضرت من غير أن تكون الموضوع المحدث عنه. لنصطدم بها على نحو غير مباشر بذكر من ينوب عنها، ولتتغير بذلك وظيفتها بتغير المقام.

فبعد أن كانت "مبتدأ" (تداوليا) في الجملة المعترض فيها، أي مجال الخطاب أصبحت تتمة وهي هنا "بؤرة"، لأنّها هي التي تحمل المعلومة المراد إبلاغها لكي لا يحدث هناك لبس وغموض في الإبلاغ والفهم. وهذا ما يسمى نحويا بالمراقبة الإحالية فبها تفسر وجود الجملة الجديدة التي لا محل لها من الإعراب. فالضمير الغائب (الهاء) هنا يدل على موضوع وينوب منابه، ولا يأخذ دور الرابطة، لأنّه وقع في جملة تفيد التخاطب والاستحضار. وحينما نقول: لا يأخذ دور الرابطة، فهذا يعني في الجملة وليس في الخطاب لأنّها فيه تأخذ «دور الضمير الذي يربط بين جمل النص.» [(30)] لذا، نرى هنا بأنّ هذه الجملة لا تؤلف قضية كاملة، لأنّ موضوع القضية (الخطاب) المحدث عنه أسند إلى رابطة «الهاء». فوجب العودة إلى ما هو خارج عنها تركيبا ودلالة لفهمها.

إنّ تعيين المرجع أمر ضروري لاستكشاف الدلالة، فالضمير الغائب يحتاج إلى «محتوى مرجعي يحدد التحديدات المصاحبة للنّص، التي قد يستغني عنها "أنا" و"أنت"» [(31)]. فهو لا يعين شيئاً ولا شخصاً إذا لم يستعمل في السياق اللّغوي، الذي يلعب دوراً في جعل وظيفته إما رابطة أو موضوعا مناب. وكأنّ المتكلم يتعمد ذكر الموضوع أولا، ثم يبلغ عنه بـ(هاء) شاهدة عليه لتعيينه واختصاره، وهي (هاء) ظاهرة. كما يمكن أيضا، أن يكون الضمير الغائب

مستترا. ليكون اللاشخص الثالث شخصاً أساسياً (مضمرا) (مفردا أو جمعا) يشكل «الدعامة الأساسية للإسناد Prédication.»[32]. ففي الجملة الاعتراضية «وقد قال عيسى بن مريم، عليه السلام -**وهو روح الله** – للحواريين: إنّكم لن تدركوا ملكوت السموات إلاّ بعد أن تتركوا نساءكم أيامى وأولادكم يتامى.» [33]. فالمبتدأ الذي يعتبر مسنداً إليه في البنية الأساسية للجملة، والمحدث عنه ليس ظاهرا، فلقد أشير إليه نحويا، لتحديد موقعه بالإضمار. أي أنّ الضمير (هو) يعود على "المحور" أو المحدث عنه في الجملة المعترض فيها. ليعبر عن الموضوع استنادا إلى المجال المعرفي الخاص به، فيكون بذلك مرتبطاً بمرجع باعتباره مسنداً إليه ضمنيا، راجعا إلى زمان ومكان معين مخصوص، متوهما أو واقعيا. فتلعب بذلك الضمائر دور الرابطة بين متواليات الجمل التي تكوّن النّص، والتي يتعين فيها عناصر أخرى يظهرها الاستعمال.

الضمائر في الرواية:

نجد في رواية "مرايا متشظية" أنّ الضمائر النحوية فيها تمثل أشخاصا، وهم أطراف التواصل من متكلم ومتلق. وحين نحاول وصف الشخوص في الرواية، سوف نحصل على ما يلي:

- أنا = الشخص المتكلم وهو الراوي.
- أنت / أنتم = الشخص المخاطَب والأشخاص المستمعون.

وهما يمثلان عاملي التواصل، وهما السارد والمسرود عليه.

ولعلّ الهدف من الاستعمال الواضح لضمير المخاطب الدال على الجمع هو ادماج المخاطب بطريقة أو بأخرى ليكون فاعلا في الخطاب. فمنذ الصفحات الأولى للرواية نجد الراوي يخاطب المسرود عليهم، ويقول: «اسمعوا يا "حضّار"، يا أصحاب الحلقة الأبرار، اسمعوا ما سأحكيه لكم من عجائب الأخبار، وبدائع الأسفار، وما رويته عن الأسلاف الأخيار، وما سمعته من الأشياخ الكبار، منذ غابر الأعصار...» [34] وهنا نلاحظ بأنّه سماهم بـ"الحضّار" وهذا يعني أنّهم متواجدون في المقام التخاطبي، ويمكن أن يكونوا متعددين، لا يعرفهم.

ثم يعرض لنا صورة عن الذين يحدثهم فيها نوع من الغموض والاضطراب في **ذيل الكلام**، إذ يسألهم: « يا بني من لا أدري من أنتم؟... فهلاّ أخبرتموني أنتم بشأنكم كما أخبركم أنا بما سمعت من راوي الأخبار، وناقل

الآثار، وصلّوا على النبي المختار **وأنتم الظّلام الذي يسميكم الظّلام...**» [35]. وهذا يعني أنّه سيكون هناك حديث متبادل إلاّ أنّه يعرض عن ذلك قبل الإخبار بهويتهم با بين السؤال والجواب في قوله: « ... ولا داعي لتخبروني بذلك. كان أخبرني بذلك من قبلكم راوي الأخبار...»[36] فهو راوي الأخبار، وهو العالم بكل شيء. ويبقى التشويش واضحا حتى في الإجابة، في « أنتم قوم تفتخرون بسفك الدّماء. ترجون ثواباً على ذلك. تحبون شرب دماء الناس في الرّوابي السبع... وترجون الثواب والغفران على ذلك. كما أخبرني بذلك راوي الأخبار، في جبل قاف منذ غابر الأعصار. يا بني من لا أدري من أنتم؟...»[37]. أمّا عن الحضّار وتبادل الكلام بينهم وبين الراوي فسنجده في: « نحن، **قل لشيخنا مع حفظ اللّقب**، لا نلطخ أيدينا إلاّ بدماء الأطفال والعذارى. ذاك ما علّموه لنا. يقال هذا الكلام لغيرنا... ولماذا سمانا الظّلام الظّلام...» [38].

والعملية التخاطبية متعلقة أساسا بالمخاطَب، لذا فإنّ السّمة الحاسمة المتعلقة في الرواية هي غلبة الشخص المخاطَب، أين يشار معه إلى الشخص المتكلم كمتلفظ للكلام. وهذا ما نلاحظه باستخدام الضمير الدال على المتكلم (الياء) واستخدام الضمير (نحن) الدال على الجمع. ونجد الراوي يخصص المخاطَب بعد ذلك بجملة مستقلة اعترض بينها وبين ماورد ذكره وهذا في:

«...وها أنت ذا...

وهل تدري حقا، من أنت؟..»[39].

ثم يقدم بعد ذلك إجابة تؤيد رأي بارت في أنّ الشخوص التي يقدمها السرد، هي: «كائنات ورقية»[40]، وأنّ هذه الرواية فعلا خيالية، في «... أنت وأصحابك كائنات من ورق... ربما أنتم فعلا كائنات من ورق حقير، أصفر بال يصوركم القلم عليه. يشكلكم الخيال فيه. تعبث بكم اللّغة في كلّ وادٍ...»[41]، وفي «أنت كائن ورقي ضئيل. لا قيمة لك. كائن صنعه الخيال الشارد. بنَته اللّغة المفتونة بنفسها. لا أنت كافر، ولا أنت مؤمن. ولا أنت إنسان، ولا أنت حيوان. ولا أنت شيء من الأشياء. إلاّ أن تكون ألفاظا من لغة...» [42] فيجب النّظر إليها في إطار الرواية وبنائها وفقط، وأنّها لا تحيل إلى الواقع، لتصبح مجرد أداة اصطنعها.

الإحالات:

إلاّ أنّ ما يميز الرواية، أنّها سرد لأحداث مضت، ويدل عليه الجملة التي افتتحت به «كان في قديم الزمان، وسالف العصر والأوان...»[43] التي تعتبر بداية نص خرافي، تبدو فيه غلبة الشخص الثالث من خلال الضمير (هاء)، الذي يعتبر إعادة لمذكور سابق ليستطيع بذلك الاعتراض أن يشكل موضوعه بالإحالة، أي من خلال عملية الإحالة إلى السابق، ويفهم تحت تشكيل الموضوع إعادة ذكر معلومات وردت في النص القبلي، ويكون أساس تشكيل الموضوع «تطابق الإحالة» [44]، فنجد أنواعا للإحالة نذكر منها:

-**الإحالة الضميرية: (النّصية)** وهي إعادة نصية لاسم من خلال الضمير ويمكن أن ينظر أساسا إلى ضمائر الشخص الثالث.وهو الموضوع المحدث عنه سابقا. والمحيلات المعروفة هي: هو/ هي/ هم، وهي عناصر إشارية في النص. تقوم بإعادة تعبير مختصر ومحيل:-تتضمن إعادة ذكر اسم بإضماره، إذ إنّ الاسم لا يضمر إلاّ «بعد أن تقدم ذكره ومعرفة المخاطب على من يعود ومن يعني.»[45]. ونجد ذلك في مقامات الدعاء، وهذا في «انهضوا يا عوام للعمل... يقول لكم شيخكم الأغرّ الأبرّ **حفظه الله**...» [46]. وفي نفس الغرض، نجد «...نسيت أن أخبركم في هذه المناداة المسائية...أنّ الشّيخ الأغرّ الأبرّ، **حفظه الله ورعاه وأكرم مثواه،** أقرّ عليكم رحمة وعطفا عليكم...أن من خرج منكم من بيته... دفع ضريبة أطلق عليها الشّيخ الأغرّ الأبرّ **حفظه الله وأكرم مثواه** ضريبة الخروج إلى تنفس الهواء في الفضاء.» [47] وكما نجد عناصر إشارية أخرى في «**ذاك** قول ضعيف ومردود، يا عوام الرّبوة. اتبعوا ما يدبر لكم شيخكم الأغرّ الأبرّ، **حفظه الله**...» [48] فهنا نجد إشارة إلى المنادي المسائي الذي يتحدث باسم الشّيخ الأغرّ الأبرّ شيخ قبيلة بني خضران، وإشارة إلى الموضوع المذكور سابقا في (ذاك) وهو أنّ عالية بنت منصور تقيم وحدها في القصر، وإشارة ضميرية في ذيل الكلام إلى جملة سابقة، في مقام الدعاء. وهنا تدخل من طرف المنادي ليجيب على سؤال أهل الربوة الخضراء ليعود فيما بعد إلى نقل كلام الشّيخ.

-**الإحالة الترادفية:** وهي صيغ بديلة عن مذكور سابق، تكون مناسبة بالنسبة للنص المحدد الذي أحيل له. نجدها خاصة في جمل النداء، كما في «يقول لكم شيخكم الأغرّ الأبرّ دعونا من النّساء. **يا همج يارعاع، ويا غوغاء، ويا عامة ويا سوقة...ولا أنتم تحزنون**...أمر النّساء نرجئه إلى حين من

الدّهر.» [49]. فجملة النداء، ترادف مذكورا حدد من قبل في النص، وهم أهالي الرّبوة الخضراء. وفي « يا أهل الرّبوة الخضراء، **سادتها وغوغاءها** يابني خضران... لقد اغتيل أحد أشياخكم الأفاضل.»[50]. فهنا نجد إعادة صياغة المخاطَب وتخصيصه، لإفادته بمعلومة، و(الهاء) تحيل إلى الرّبوة الخضراء وتطابقها في الإحالة، كما هو واضح. كما نجد جملا أخرى يعاد صياغتها من خلال تخصيص موضوع الإحالة ففي «اسمعوا يا غوغاء يا سوقة يا دهماء. **يا من لا تعقلون إذا خوطبتم. ويا من لا تفهمون إذا نوديتم**... ألم نقل لكم ما قلنا لكم...»[51]. فالجملة التي تحتها خط بديلة للجملة السابقة عنها. جاءت في غرض التخصيص والوصف لتقريب الصورة أكثر. ونجدها أيضا في مخاطبة الشّيخ لعالية بنت منصور، في قوله: « يا بهيّة يا حييّة. يا سمية يا نقيّة. **يا صاحبة الحسن والجمال. يا ذات الغنج والدّلال. يا طاهرة يا ساحرة. يا صاحبة القصر العظيم. والشّأن_المجيد. يا عليّة**... جئتك حافيا ماشيا. مستعطفا مسترحماً. فهل تقبلين قربي؟» فالصيّغ البديلة الواصفة التي ذكرها عن عالية، جاءت تمهيدا لطلبه الذي ظلَّ يتعلق به ويتطلع إليه طول الدّهر، وهو طلب القربِ منها.

وهذه الإحالات تحقق الرّبط بالتجاور، والعلاقة بين أزواج الجمل في النص، أي العلاقات بين الجمل السابقة والجمل اللاحقة لها. إذ تتضمن جمل النّص على عناصر موضوعية (موضوعات) تعيد المذكور في جمل متقدمة (في النص السابق). لتمتلك تبعا لذلك قيمة معلوماتية ضئيلة بالنسبة للمتلقي كما نراه في النّص الاعتراضي الذي جاء في قوله: «والظّلام هو الذي يسميكم الظّلام. والنّور الذي يسمّيكم الظّلام. وكلّ الكائنات تسميكم الظّلام... وربما كنتم تدرون، وأنتم لا تدرون، أنّكم تدرون... ما النور ولا الظّلام؟...

وذلك الظّلام الذي غمركم في هذا الطّوفان من الدّماء. والدّماء التي بتُّم تتعشقون نَكْهتها. تستعذبون طعْمها... والظّلام الذي يسمّيكم الدّماء... والدّماء التي تسمّيكم الظّلام. والرّيح التي تسمّيكم الظّلام. وكلّ شيء يسمّيكم الظّلام...

والرّيح والدّماء والظّلام...

وأنتم. لعلّكم أنتم... كأنّكم أنتم... هذا الظّلام. والظّلام الذي يغرقكم في بحار هذا الدّم. في هذه الرّوابي القاحلة. في هذا الطّوفان الذي تتحدث عنه الأخبار الصحيحة أنّه داهمكم...» [52]. فهذا النّص له دلالة ضمنية ومختصرة لما يريد الكاتب التحدث عنه لاحقا، وهي اختصار وتكثيف مجازي، له علاقة بالتعبيرات السابق ذكرها، قبل الانتقال إلى نص آخر. وعلى النقيض من ذلك تقدم الأخبار تلك

التعبيرات اللّغوية التي تربط ما هو جديد في النّص اللاحق بما ذكر في النّص السابق، والتي نجدها مترابطة بالجملة الاعتراضية التي تحتها سطر « القصر الذي يقول أحد الرّواة -**وخلافا لما تقدم** -بأنَّ الذين بنوه أخيارٌ وصالحون. في الجهة التي لا تحدّها أيّ جهة أخرى. من حدائق جبل قاف...» [53].

كما يمكن أن يكون «المحيل إليه» أي موضوع الإحالة شيئا حسياً أو مجرداً، أو شخصاً، كما في « ... وتخاطب الشّمس في يأس، وبلغة لا تفهمها الشَّمس:

-يا شمس، يا غزالة، يا جميلة، يا رائعة، يا مصدر الضّياء والطّاقة في هذا الكون: بحقّ تعلّقي بك؛ ... توقّفي لا تغربي. إنِّي أناديك يا شمسُ، يا رائعة. فهل تسمعينني الآن؟ وهل تفهمين هذه اللّغة التي أُخاطبكِ بها؟ إنِّي أناديك. أم أنت لا تسمعين ولا تفهمين أيَّة لغة ممَّا يتكلمون؟...

يا شمسُ، يا حسناءُ، يا مضيئة علَى غيرنا: أنا أناديك فاسمعيني وافهميني. لا تغرُبي عنّي. ظَلّي متوهجة على الرّوابي السّبع. ظلّي كما أنت في غابر الأزمان، فيما حدثنا به حكاة الأخبار...ظلّي متوهجة مشرقة. غروبك نهايتي. يا حسناء يا رائعة...

وأنت... لا تزال تتأمل هذا الأفق الغربيّ...» [54]. فهنا شخصية "أنت" التي أُسند إليها الكلام تخاطب الشمس، كما أنّها تحيل إلى معنى وحدث سابق، وهو أنّ هذه الشمس كما جاء عند حكاة الأخبار دائما مشرقة، وإلى حدث لاحق وهو أنّ هذه الشمس على وشك الغروب، ولهذا سيكون الظّلام. فكل جملة في النّص بوصفها شيئا قد قيل تشكل الأساس لعناصر المعلومات الجديدة في الجمل التالية. لذا يمكن أن نفرّق بين:

1- محيل إلى مذكور سابق.
2- محيل إلى مذكور لاحق.

فبعد تعيين الموضوع والحدث الذي يرد في نص سابق، فإنّه يشار إليه في نصوص أخرى بالضمير الذي ينوب منابه ويعود عليه، كما لاحظنا ذلك سابقا في الإشارات. لذا فإنّ للضمائر والجمل البديلة دوراً في تشكيل **النّص التخاطبي**، بإنابتها أو إحالتها محل تعبير لغوي أو موضوع ذكر في نص سابق عنها. توجد بينهما مطابقة إحالية، وذكر لمعلومات جديدة، تساعد القارئ على الفهم وتشكيل الحدث، في زمان ومكان.

ومن خلال ما سبق، يمكن استخلاص ما يلي:

-إنّ الضمائر، التي تمثلها الأنا، يتحدد مرجعها بالسياق التداولي للخطاب، باعتبارها خالية من المعنى في استعمالها مفردة، لذا فهي مرتبطة

بمرجع يحدد دلالتها واستعمالها. وهي من عوامل تكوين الخطاب كبنية تامة لاحتوائه على أدوار نحوية ودلالية وتداولية، وذلك بالإحالة إلى معلومات سبق ذكرها، لتصبح بذلك جزءا من المعلومات المشتركة.

-إنّ الموضوع يمكن التعبير عنه بأية صيغة أو عبارة تساهم في الإحالة عليه، يحدده المتلقي من خلال السياق، والإحالة بوصفها علاقة توجّه إلى أشخاص أو أشياء أو زمان ومكان يمكن تقسيمها إلى:

-إحالة شخصية: وتنقسم إلى إحالة سياقية ونصية.

-إحالة زمنية.

-إحالة مكانية.

ولقد استعملت الأولى عند التوحيدي، للإحالة على المخاطب سواء كان موجّهاً إلى الأنا أو إلى الغير بمراعاة المسافة أثناء الوضع التخاطبي. وفي الرواية نجد فيها ما يثير الغموض والتشويش لدى القارئ أو المتلقي، لأنّها قائمة على الإيهام والتخييل والضديّة التي تشترك في محور التواصل/ اللاتواصل الجامعة للثنائيات: (موت/حياة تقابلها عدم/ وجود، إنساني/ لا إنساني تقابلها خرافي/ لا خرافي).

الهوامش:

1 – زتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النص، ترجمه وعلق عليه، سعيد حسن بحيري ط1، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة، 2003، ص53.

2– فان ديك: النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ص28.

– موضع التحاور: مجموعة من القضايا يعرفها المتكلمون والمخاطبون. والموضوع يتحقّق في التحاور.

3– تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر 1979، ص 113.

4– نفسه، ص 110.

5 – D.Maingueneau : Approche de L Enonciation En Linguistique Française, Hachette, Paris, 1981, p34.

6– سمير شريف أستيتيه: اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ط1، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الأردن، 2005، ص197.

7– عبد الجليل مرتاض: اللغة والتواصل، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2003، ص 89.

8– ك.فوك، ب. لوفوفيك: مبادئ في قضايا السانيات المعاصرة، تقديم: المنصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984، ص 134.

9 – سمير شريف أستيتيه: اللسانيات، ص 115. والضمائر المذكورة هي ضمائر شخصية، أما التي تدل على الغيبة نجد: الذي، التي، من، ما، اللائي... انظر تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص 910.

10 – C. K. Orrekioni : L'Enonciation de la Subjectivité dans le langage, Armand Colin éditeur, Paris, 1980, p 34.

11– عبد الجليل مرتاض: اللغة والتواصل، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2003، ص87.

12– C.K.Orrekioni : L'Enonciation de la subjectivité dans le langage, p37.

13−Emile Benveniste: Problème de Linguistique Générale, T1, Ed Gallimard, Paris, 1966, p 251.

14 − تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 110.

15 − أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، تحقيق: وداد القاضي، دار الثقافة، بيروت، 1982، ص 63.

16− عباس حسن: النحو الوافي، ج1، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص218.

17− الإشارات، ص 180.

18− تمام حسان: اللغة العربية معناها ومبناها، ص 361.

19−محمد خطابي: لسانيات النص، مدخل إلى انسجام الخطاب، ط1، المركز الثقافي العربي، لبنان، 1991، ص 185.

20− الإشارات، ص 180.

21 − نفسه، ص409.

22− م.ن، ص57.

23− م.ن، ص388.

24− م.ن، ص 76−77.

25− م.ن، ص 17.

26− م.ن، ص17−19.

27− م.ن، ص455.

28− المبتدأ: وظيفة تداولية خارجية، وهي المكون الذي يحدد مجال الخطاب.

29− الإشارات، ص 388.

30− صلاح الدين حسنين: الروابط في النص الشعري، ص 73.

31 − Emile Benveniste : Problème de linguistique générale, p 233.

32 − جان سيرفوني: الملفوظية، ترجمة قاسم المقداد، مطبعة اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 1998، ص 30.

33 − الإشارات، ص 175.

34 − عبد الملك مرتاض: مرايا متشظية، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ص 03.

35− نفسه، ص 08.

36 – م.ن، ص.ن
37– م.ن، ص08.
38– الرواية، ص23.
39– نفسه، ص09–10.
40– رولان بارت: التحليل البنيوي للقصص،ترجمة منذر عياشي، ط 2، مركز الإنماء الحضاري، بيروت، 2002 ص72.
41– الرواية، ص12.
42– نفسه، ص15.
43– م.ن، ص05.
44– زتسيسلاف واورزنياك: مدخل إلى علم النص، مشكلات بناء النصّ، ترجمه وعلّق عليه سعيد حسن البحيري، ط 1، مؤسّسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة 2003، ص 76. وص 124وما بعدها.
45–موفق الدين بن يعيش: شرح المفصل، ج3، عالم الكتب، بيروت، ص56.
46 – الرواية، ص22.
47– نفسه، ص158.
48 – م.ن، ص25.
49– م.ن، ص25.
50 م.ن، ص107.
51 – م.ن، ص 107.
52 – م.ن، ص03–04.
53– م.ن، ص19.
54– م.ن، ص13.